

شعر ملك غرناطة يوسف الثالث (دراسة موضوعية وفنية)

الدكتور مخيمر صالح مخيمر
جامعة اليرموك - الأردن -

لمحة تاريخية:

بعد زوال الموحدين من الأندلس، وسقوط قرطبة في يد الإفرنج سنة (633 هـ) لم يبق للمسلمين غير غرناطة، تولاها ابن الأحمر، وقبيلة (بنو الأحمر) قبيلة عربية عميدها محمد بن يوسف النصر، المعروف بابن الأحمر، وقد استطاعت دولة بني الأحمر أن تقف في وجه التوسع الأفرنجي مدة طالت نحو قرنين ونصف (1).

عرفت غرناطة في حكم بني الأحمر، أزهى عصورها، فيها شيدت قصور الحمراء التي لا تزال ماثلة حتى اليوم، وامتاز عصرهم بتعزيز الآداب، فنبع في دولتهم جملة من الشعراء والكتاب وعرف جماعة من سلاطينهم بالشعر والنثر. وكان من بين هؤلاء: يوسف الثالث الملقب بالناصر لدين الله، الذي ولد في منتصف ليلة الجمعة السابع والعشرين لصفر من عام ثمانية وسبعين وسبعمائة (2) وذلك في عهد جده الغني بالله، وهو عهد بلغت فيه دولة بني الأحمر ذروة مجدها، وقمة عزها، وتولى ملك غرناطة من سنة 810 - 820 بعد أحداث مثيرة سنعرض لها في مقام الحديث عن شعره.

ديوان يوسف الثالث محقق، حققه وقدمه العالم، الجليل المرحوم عبدالله كنون، وبذلك أغنى أو أثرى المكتبة العربية بشمعة تسهم في تبديد الضبابية التي تلف تاريخ المسلمين في الأندلس في هذه الحقبة المتأخرة.

أما عن الدراسات السابقة لهذا الديوان، فلا أحسب أن هناك دراسة متخصصة لفنون الشعر في هذا الديوان دراسة موضوعية وفنية، غير أن الباحث لا يعدم وجود ملحوظات عامة مفيدة عند د. شوقي ضيف في كتابه (عصر الدول والإمارات) (3) وبعض الملامح العامة المفيدة، التي تطرق إليها

(1) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المستنصرين، محمد عبدالله عنان، القاهرة، الطبعة الرابعة، ص 40، 1987 م.

(2) مقدمة ديوان ابن فركون، تحقيق محمد بن شريفة، المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1987 م.

(3) عصر الدول والإمارات (الأندلس) شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ص 220.

الأستاذ محمد بن شريفة، محقق ديوان ابن فركون (4) الشاعر المتخصص في مدح يوسف الثالث، فقد كان يعرض الأستاذ محمد، كثيرا من أخبار يوسف الثالث في معرض حديثه عن شعر ابن فركون.

أما مقدمة محقق الديوان (عبدالله كنون) فهي مقدمة جيدة في استقصاء طريقة الحصول على الديوان، والتحقق من نسبه لمؤلفه أما دراسة المحقق لفنون الشعر في الديوان فقد جاءت مختصرة، إضافة إلى افتقارها إلى الاستشهاد بالأمثلة الشعرية وقد رتب ثبوتا للقوائد، وذلك وفق الترتيب الهجائي الذي جاء عليه الديوان، دون أن يكتب مطلع القصيدة أو عدد أبياتها وذلك كأن يقول (قافية الهمزة من ص كذا - ص كذا). وعلى هذا فقد جاءت هذه الدراسة في قسمين اثنين: الأول: الدراسة الموضوعية، وتشمل دراسة الفنون المختلفة في هذا الديوان مرتبة وفق نضوج التجربة الشعرية عند الشاعر.

1- شعر الرثاء

2- شعر العتاب

3- شعر الحنين إلى غرناطة

4- الشعر السياسي

5- شعر الفخر

6- شعر الغزل والنسيب

7- الموشحات

الثاني: الدراسة الفنية وتشمل الجوانب التالية:

1- مطلع القصيدة عند يوسف الثالث

2- شعر يوسف الثالث بين القصائد والمقطوعات

3- التأثير الفني واشتمل على عدة عناصر أهمها:

أ) المعارضة

ب) التضمين

ج) مصادر الصورة

د) الموسيقى

الدراسة الموضوعية:

الفنان قبل كل شيء، إنسان ذو شخصية متميزة، بجوهرها وحدودها وأبعادها وإمكاناتها، إنسان اختزن تجارب ذاتية، كونت شخصيته بفضل سعيه في هذا الوجود، بين بيئة المجتمع، وهو إذ يندفع إلي التعبير الفني، إنما يندفع بالفعل إلى التعبير عن نفسه، وما يخالجها من أشتات والتماعات الخواطر والمشاعر، فكل ما تثيره المشاهد والأحداث في محتوى شخصية الفنان من رؤى وصبايات وأحاسيس وآراء، وكل ما يتوتر به وجدانه في مواقف من مواقفه الحياتية وفي لحظة من لحظات سعيه كفرد اجتماعي... هو مادة التعبير الفني ومن هنا يمكننا أن نتعرف إلى أحداث هامة ومشاعر خاصة كان لها أثر في نفس هذا الشاعر الملك، سطرها فنا جميلا في صفحات ديوانه الذي وصفه في مقدمته النثرية بقوله (5):

«وصدرت عنا ناشئات في حجور العناية، وسافرات عن وجوه جاءت من الحسن أية بعد أية، بين مطولة في فنون تعددت، وبين مقطوعة رمت الشاكلة فأقصدت».

وقد رأيت أن أدرس أغراض الشعر في ديوانه وفقا لنضوج تجربته الشعرية

1) الرثاء: رثاء والده:

لما توفي الغني بالله سنة 793 هـ، خلفه ولي عهده يوسف الثاني والد شاعرنا، وكان هذا يومئذ في الخامسة عشرة من عمره تقريبا، وقد رشحه والده السلطان لولاية عهده، نظرا لأنه أكبر أولاده، ولعلمه وأدبه وكفاءته، وغضب أخوه محمد، وهبّ مع بعض أنصاره إلى الحمراء، ولكن لم تطل مدة يوسف الثاني في الحكم، إذ توفي في 16 ذي القعدة، عام 774 هـ، وأفلح ولده محمد بالاعتماد على

حزبه في الاستيلاء على الملك، وإبعاد أخيه إلهي سجن (شلوبانية) حيث ظل معتقلا إلى سنة 810 (6)، وأثر كل ذلك في نفس يوسف الثالث أيما تأثير، ومن الطريف أن هذا الحدث هو الذي فجر ملكته الشعرية، فكانت أولى قصائده قد قالها وهو في السجن، ولعل أبرز القصائد التي قالها في السجن كانت قصائد رثائه لوالده ومن ذلك قصيدته التي يقول فيها (7) معبرا عن المصيبة تلك، التي ضاعفت همه وفطرت قلبه مستذكرا علاقته الحميمة بأبيه، وحبه له.

خيلي أين الصبر منا ويوسف ❖ وأين أياديه الكريمة تصرف
وأين نبال بالسبيكة نمتها ❖ ولا منظم للدهر نحوي يطرف
علي ظلال من عناية يوسف ❖ ودوني حسام للخلاف مرهف
تباكرني تترى عوارفه ضحى ❖ وينتابني تسالّه والتعرف
فلا همة للقلب فيها تهمم ❖ ولا كلفة للنفس فيها تكلف
وحاجات نفس لم أراقب مكانها ❖ فكان لها منه الرضا والتعطف
لقلبي أولى أن يذوب تفتطرا ❖ وعيني بقاني الدمع تهمي وتذرف
تبلد فكري عند فقدي يوسف ❖ وخامر قلبي منه ما ليس يوصف
فلا زال ريحان وروح ورحمة ❖ بلحد ثوى فيه الشريف المشرف

رثاء ابن زمرك:

ومن الحوادث التي هزت يوسف الثالث في سجنه وفاة «ابن زمرك» حيث كتب كتابا يوضح ظروف قتله، ومما جاء فيه: «إن سأل سائل عن الخبر الذي ألعنا بذكره وضمنا هذا البيت فطيع أمره، فذلك عندما نسب صاحب الأمر، يقصد (أخاه السلطان محمد السابع) إليه ما راب، وتلّه وابنيه للجبين معفرين بالتراب، وصدمه في جناح الليل والمصحف بين يديه، يتوسل بآياته، ويتشفع بعظيم بركاته فأخذته السيوف، وتعاورته الحتوف، وأذهبه سليبا قتيلا، مصيرا

(6) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، مصر، دار المعارف، 1955 م، الجزء الثالث، ص 168.

وانظر: الأندلس الداهية (دولة الموحدين ودولة بني الأحمر، وانهيار الأندلس الكبرى، صبا، باشا تعريب عبدالرحمن ارشيدات، عمان، 1989 ص 22).
(7) الديوان ص 144 - 145.

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

بصرع منزله كشيئا مهيلا، وكنا على بعد من هذه الأزمة التي أورشت
القلوب شجنا طويلا، وذكرتنا بعناية مولانا الجد الغني بالله بجانبه أعظم ذكرى،
فأعربنا برثائه خلدا وفكرا» (8)، وقال في رثائه:

يا نائم الجفن أسعف دائم السهر ❖ يبكي دما لقتيل صارم الذكر
كم ذا الرقاد وهذا الدهر يفجعنا ❖ أما تفيق لهذا الحادث النكر
أودى الزمان بمن كنا نلوذ به ❖ في حالتيه معا في العسر واليسر
فلا تثق بجفون بان ناظرها ❖ ولا بملك فقيد السمع والبصر
واعجب من الدهر والأيام إذ طمست ❖ مطالع الزهر أو أخذت شذا الزهر
هل كان إلحيا يحي العباد به ❖ هل كان إلأقذى في عين ذي عور
إن قال قولا ترى الأبصار خاشعة ❖ لما يحير من وحى ومن خبر
يا لهف نفسي لو قد كنت حاضره ❖ غداة جرعه أدهى من الصبر

ولعل اعتناء يوسف الثالث برثاء ابن زمرك، واهتمامه بجمع تراثه في
كتابه (البقية والمدرک من شعر ابن زمرك) وعمله على إرضاء أولاده وإرغامه
خصومه وأعداده على تأديبه ورثائه، يثير التساؤل حول داووع ذلك، فهل هي
الروابط والوفاء لعهد جده، أم هي الروابط الأدبية التي تجمع بينها؟ أم أن ذلك
كا مجازاة على مواقف ابن زمرك السياسية تجاه يوسف الثالث، حيث كان
يدعو ابن زمرك إلي تحريرہ من السجن (9) إن الاحتمالات السابقة كلها يمكن أن
تكون صحيحة.

رثاء روجه وولده:

وقد شاء القدر أن يحترق قلب هذا الملك ثانية بوفاة روجه وولده البكر،
الذي فرح بقدمه فرحا أنطق لسانه شعرا، فإذا به يقول شعرا يذوب فيه حسرة
وألم، «فوفى لعهد السكن الكريم حق الوفاء» (10) وجاء «بملا يحصيه القول من
الإبداع» على حد قوله في رثاء ولده وزوجه.

(8) الديوان ص 75.

(9) أزهار الرياض، المقرئ ص 55.

(10) الديوان ص 6.

ومما قاله في رثاء زوجه (11): متأسيا عنها بوجود ولده قبل وفاته بعدها.

أحقاً أن رحلت فلا إياب ❁ وأنا إن سألنا لا نجاب
أوحشتنا بها قضت الليالي ❁ أفرقتنا بها سبق الكتاب
لنا في الخطب صبر يوسف ❁ على أن لا يرى منكم خطاب
ولو كان الرحيل إلى إياب ❁ لكان العود يرقب والإياب
ولكن سارت الأظعان سيرا ❁ حثيثا دونه الخيل العراب
أحلتها النوى مرمى بعيدا ❁ ومثوى زادها فيه التواب
وها أنا يوسف قد دعاني ❁ لذكرها الدعاء المستجاب
لفرع خلفته أمير ملك ❁ رفيع من معاليه الجناح

ثم ما لبث أن فجعه القدر بفلذة كبده، فقال (12):

إن لله خميس ❁ ثار في يوم الخميس
ضحكت سن الردى ❁ عنه في يوم عبوس
فلكم للدهر من ❁ حالتي نعمى وبؤس
والحمام كم له ❁ من معاطاة كؤوس
قطعة من كبدي ❁ جعلت فوق الرؤوس
مدر اللحد مضى ❁ منه بالدر النفيس

وقال راثيا زوجه وولده (13):

أعيز الحمى من أن يخيب راجيا ❁ تذكر من سلمى حبيبا مناجيا
لقد جد سيرا ركبها حين ودعت ❁ وخلفت القلب المقلب عانيا
سما النظر المغري بها متلمحا ❁ معالم من أطلالها ومعاليا

(11) الديوان ص 6 - 7.

(12) الديوان ص 155.

(13) الديوان ص 165.

فأياسني أن ضلت العين قصدها ❁ على ثقة أن لا ترى النجم هاديا
وأن المحيا وانبعث صباحه ❁ تراءى لعيني خافت النور خافيا
فياليت ما بالصدر بالعين قد بدا ❁ ويا ليت ما في العين بالصدر ثاويا
وجدد لي الذكرى رضيع مكانه ❁ بإنسان عيني لا أقول فؤاديا

رثاء أخيه علي الملقب بمعز الدولة:

لا شك أن القسوة التي واجهها يوسف الثالث من أخيه أثرت في نفسه فصقلتها صقلا فكان رفيقا بأخوته الآخرين، وقد كان أحبهم إلى نفسه أخاه الأصغر علي الملقب بمعز الدولة الذي توفي أيضا فرثاه بقصائد جميلة معبرة نذكر منها قوله (14):

جهلوا المجد والسلف	❁	والجميل الذي سلف
وعلاء قد ارتقى	❁	مظهر العز والشرف
وعطايا جزيلة	❁	بين ماض ومؤتلف
كم أنادي نداء من	❁	شجوه فوق ما وصف
ياعلي بن يوسف	❁	غلب الوجد والأسف
ليس لي فيك حيلة أي	❁	غير ترديدي اللهف
عيش يلذ لي كل	❁	يوم أودى بك التلف
قلب لـسـقـد سـلا	❁	كل دمع همى وجف
كنت ذخري وعدتي	❁	خلفا لي ممن سلف
كنت أنسي وراحتي	❁	ساعدا في الوغى وكف
كنت سمعي وناظري	❁	فمحت نورك السدف

رثاء القادة: وقد حفظ يوسف الثالث ودقائده، ورعى العهد لرجال دولته بأشعار كثيرة، منها المرثية الخمسة في قائده وصهره الذي استشهد، فرثاه مشيراً إلى جهاده يقول (15):

أما عجب أن غربت أنجم السما ❖❖ وكنا عهدناها تروق توسما
فيا جيرة قد يمموا أجرع الحمى ❖❖ سلوا الأفق الشرقي مما تجهما
ولم قطرت أجفان مقلته دما

قضوا فئة طوع الجهاد رئيسة ❖❖ حوت أثرا مسموعة ومقيسة
فإن أصبحوا نهبا وعادوا فريسة ❖❖ فما بذلوا إلا نفوسا نفيسة
ولم يقصدوا إلا الجناح المكرما

ومما يلاحظ أن عناصر قصيدة الرثاء عند يوسف الثالث لا تخرج عن قصيدة الرثاء العربية القديمة الصادقة، والتي صدر فيها الشعراء عن طبع وسجية دون تكلف للمعاني، أو إدخال لبعض المعاني الفلسفية فيها، كما كان شائعا عند أصحاب مدرسة الصنعة في العصر العباسي من أمثال أبي تمام والمعري ومن تأثر بهم من الشعراء في العصور التالية ويمكن أن نلخص هذه العناصر فيما يأتي:

1- وصف أثر الحدث في نفس الشاعر، فالشاعر يتقبل الفاجعة للوهلة الأولى بمزيد من الألم والتفجع والإحساس بضبابية الحياة، فقلبه احترق بالنار التي لا تنطفئ، وعيونه تهمني وعقله ذاهل أمام استيعاب الحدث، يقول في رثاء والده (16).

لقلبي أولى أن يذوب تفرطاً ❖❖ وعيني بقاني الدمع تهمني وتذرف
تبلد فكري عند فقدي يوسف ❖❖ وخامر قلبي منه ما ليس يوصف
ويقول في رثاء زوجه (17):
أحقاً أن رحلت فلا إياب ❖❖ وأنا إن سألنا لا نجاب
ويقول في رثاء ولده (18):

(15) الديوان ص 118 - 119.

(16) الديوان ص 144.

(17) الديوان ص 126.

(18) الديوان ص 119.

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

بقلبي لهيب ليس يخبو ضرامه ❀❀ بجفني دمع مستهل غمامه
وهيهات أين النوم من جفن هائم ❀❀ تنادى به ركب الحمى وخيامه؟
وقال في رثاء أخيه (19):

أي عيش يلذ ل ❀❀ يوم أودى بك التلف
كل قلب قد س ❀❀ كل دمع همى وجف

2-ذكر صفات الفقيد ومناقبه: فوالده صاحب أياد كريمة، وهو حسام الخلافة
يقول (20):

خليلي أين الصبر منا ويوسف ❀❀ وأين أياده الكريمة تصرف
علي ظلال من عناية يوسف ❀❀ ودوني حسام للخلافة مرهف
ويقول في قصيدة أخرى، وصافا إياه بإمام الصالحات، والأنيس الوحيد في
الدنيا يقول (21):

إمام له في الصالحات تقدم ❀❀ وليس له في المعلمات تأخر
تولى فولى بعده الأنس وانقضى ❀❀ فلا أثر إلا الأسى والتفكر
وقد وصف أخاه بالدر الذي كان يصونه ويحافظ عليه، وأنه الشمس الذي
كان يرى من خلالها الدنيا، ل هو السمع والنظر.
يقول (22):

يا علي بن يوسف ❀ غلب الوجد الأسف
ليس لي منك حيلة ❀ غير ترديدي اللهف
كنت ذخري وعدتي ❀ خلفا لي ممن سلف
كنت أنسي وراحتي ❀ ساعدا في الوغى وكف
كنت سمعي وناظري ❀ فمحت نورك السدف
كنت درا أصونه ❀ فتشظى عنه الصدف
كنت غضا يروقني ❀ فتثنى ثم انقصف
كنت شمسي فنورها ❀ في ضحاها قد انكسف

(19)الديوان ص 167.

(20)الديوان ص 144.

(21)الديوان ص 67.

(22)الديوان ص 167.

كنت بدري تضىء لي • غالة الخطب فانخسف
أفل النور لا أرى • بعد الدهر من خلف
كنت دنياي ها أنا • حيث قيل أبودلف

3-عنصر التأسي والتعزي: مع أن يوسف الثالث أظهر في مرثياته تفجعا كبيرا، إلا أنه إنسان يؤمن بأن الموت مكتوب على الناس، فهو الكأس الذي لابد من شربه، وهو حكم الله الذي لا راد له، يقول في رثاء أخيه (23):

لموجدة القلب المفجع موقع • ولكن إلى الحكم الإلهي ترجع
تجلت عليه من خلافة ملكنا • مواهب يهمي صوبهن ويهمع
إلى أن توارى في الثرى بعد ما سرى • وشهب الثريا نحوه تطلع
وصاحبه الروح الأمين لوجهة • يؤمنه فيها الشفيع المشفع
ويقول في رثاء ولده (24):

إن لله خميس ••• ثار في يوم الخميس
ضحكت سن الردى ••• عنه في يوم عبوس
والحمام كم ••• له من معاطاة كؤوس

وهو يدرك أن الموت خير واعظ للإنسان، وهذا المعنى الذي قال فيه شعرا كي يرسم على قبر أخيه. يقول (25):

يا قبر فيك تذكر وعظات ••• وإليك من أنظارنا اللحظات
هل أنت إلا عبرة لألي النهى ••• تنهل في أرجائك العبرات

4-أما العنصر الرابع فيتمثل بطلب الرحمة للفقيد، وهذه عادة عربية قديمة أخذت طابع السقيا في الجاهلية، وتعددت صورها في الإسلام، حيث أصبح الدعاء بالرحمة، والمغفرة، والجنة، يقول في رثاء والده (26):

(23) الديوان ص 139.

(24) الديوان ص 155.

(25) الديوان ص 169.

(26) الديوان ص 144.

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

فلا زال ريحان وروح ورحمة ❶❶ بلحد ثوى فيه الشريف المشرف
وقال في رثاء زوجه (27):

أحلتها النوى مرمى بعيدا ❶❶ ومثوى زادها فيه الثواب
وقال في رثاء أخيه (28):

تقضي شقيق الروح لا زال لحده يعاهده صوب من الغيث ممرع
وقد فجر موقف الرثاء وجدان الشاعر المرهف المكلوم بنوائب الدهر التي
تعاقبت عليه، مما لون شعره تلويها يميل أحيانا إلى الضجر من الحياة كلها،
ويميل أحيانا أخرى إلى معاهدة هؤلاء الأحباء الذين فقدهم على الوفاء لهم، يقول
في مقطوعة يتذمر فيها من الحياة بعد رحيلهم (29):

خليا نفسي تموت أسا ❶❶ حين لا يجدي متى وعسى

رمم فتت لها كبدي ❶❶ إذ نشدت الأربع الدرسا

قوضت للموت أرحلهم ❶❶ فصباحي بعدهن مسا

أما في الوفاء، فهو يعاهد أخاه على أن يبقى على الذكرى يهمي عليهم
الدموع ولا ينساهم (30):

فما طارق طارق إلا دمعي منهل ❶❶ ومن كبدي الحرى زناد لقادح
كأن لم يمت ميت سواك ولم يكن ❶❶ بكائي لترجيع الحمام الصوادح
سأبكيك ما فاضت دموعي وإن تفض ❶❶ فحسبك تسهيدي وطول تنازحي

العتاب:

لقد شرب يوسف الثالث كأس العلقم من يد الزمان، ورأى من البلى ما
أنطقه الشعر وهو شاب يافع، وهل يجور الزمان بأكثر من أن يقذف به في
غياهب السجن بدلا من أن يعتلي عرش الحكم؟! وأن هذا الغدر الذي كاد يؤدي
بحياته من أخيه، بعد أن جمعتما الأيام تحت جناحي أبوين كانا يبعثانفيهما
المودة والعطف؟

(27) الديوان ص 6 - 7.

(28) الديوان ص 139.

(29) الديوان ص 166.

(30) الديوان ص 21.

ولذا فإن عناصر قصائد العتاب عند يوسف الثالث تتأرجح بين اللوم الهاديء اللين الذي يذكر فيه أخاه بأنها من أسرة واحدة، وأنه يشكل السند له في أوقات الشدة وأنه ما زال يحتفظ له بشيء من الود والوفاء، وذلك كقوله في قصيدة له في العتاب بلغت ثمانين بيتاً، وهي أطول قصيدة في ديوانه (31):

وقد يحفظ المرء الكريم إخاءه • ويلقى عليه الموت والموت أحمر
ويصبر للأزمان صبر محافظ • وفاء ليغني خدنه وهو معشر
فكيف بمن أصفاكم الود كله • ويدفع عن أعراضكم حين تذكر
أبوكم أبوه دون ود مضاعف • وعطف على مر الزمان يكرر
إذا ليلة بالسقم ضاقت جفونكم • تبیت لها أكبادہ تتسعر
فهبكم تناسيتم ذمامي فما الذي • دعاكم لذاك القول وهو مزور

وبين العتاب الذي يميل إلى العنف والتقريع، واصفاً أخاه بالغدر وعدم الوفاء، كما في قوله (32):

مللتم حياتي وهو عين سفاكم • وبؤتم بإثم ليس فيه تستر
أضمرتم غدرا لإظهاري الوفا • وأظهرتم ضدا لما أنا مضمّر
ويقول في قصيدة أخرى يبين فيها الفرق بين أخلاقه وأخلاق أخيه يقول (33):

وما غرنني جهل ولكن أبوة • دعيت لها حق المكانة والبر
أطارحه شجوي فيصبح لي شجا • تعرض لي بين اللهاة أو النحر
وأوسعته حلما فظن بأنني • رهبت وأن الحلم يصدر عن زعر
يمن بما يسدي كأن لي حاجة • إلى وده الممقوت أو خلقه الوعر
سيعلم من منا يسر ندامة • إذا وضع الإصباح غن صادق الفجر
إذا لم يكن للمرء دين مع النهي • فلست إلى ذاك الإخاء بمضطر

(31)الديوان ص 68.

(32)الديوان ص 69.

(33)الديوان ص 82.

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

والروايات التاريخية تشهد أن الله سبحانه وتعالى نجا يوسف الثالث من غدر أخيه، الذي أمر بقتله وهو في السجن، وقبل أن ينفذ الحكم، وذلك لأن وصول الأمر توافق ولعب مأمور السجن الشطرنج مع يوسف الثالث، فعرف يوسف بالأمر، وقال للمسؤول (34): «لنكمل لعبنا» فلم يدرك كيف يلعب بعدما شاهد من رباطة جأش الزمير وسكينته، ويقال أنهما كانا ما يزالان في اللعب حينما أقبل فارس ينعي محمدا السادس ويبشر يوسف الثالث، بانتظار الناس حضوره ليعتلي عرش الملك.

الحنين إلى غرناطة:

ليوسف الثالث قصائد رقيقة في الحنين إلى غرناطة ومعالمها كنجد والسبيكة والمصلى، يقول في قصيدة يذكر فيها الحمراء مشيرا إلى وجوده في السجن (35):

فإن سدت الأبواب بيني وبينكم	ستفضي منانا شمال وقبول
فبالله يا ريح الجنوب تأملي	أيلقى سلامي من حبيبي قبول
وإن جلت بالحمراء فاقري تحيتي	ديارا خلت مني فهن طلول
وهبي على القصر الكبير عيلة	فإن به أهل الحبيب حلول
وقولي: غريب أتلّف الحب قلبه	له أنة لا تنقضي وعويل

ويذكر في قصيدة أخرى السبيكة والمصلى يقول (36):

إلى تاج السبيكة فالمصلى	تغاديك الصبابة والهيّام
ففي أطباقها أطواد عز	وفي أفاقها قمر قمام
فيا هل يرتوي منها صدائي	ويا هل ينطفئ هذا الأوام
وهل بعد القطيعة من وصال	وهل يلقي لفرقتنا نظام

ولا يخفي أن يوسف الثالث كان يحمل حنينه إلى تلك الأماكن هموم سجنه وعزله، ويعبر من خلال ذلك عن الأمل في العودة إلى تلك الربوع الحبيبة إلى نفسه.

(34) مقدمة ديوان ابن فركون ص 25.

(35) الديوان ص 192.

(36) الديوان ص 108.

الشعر السياسي:

لا شك أن دراسة الشعر السياسي في ديوان شاعر ملك، تتسم بلون خاص من الأهمية، ذلك لأن المأمول أن تكشف بصدق عن جوانب مهمة في تاريخ الدولة فألى أي حد عكس شعر يوسف الثالث هموم شعبه المسلم، لا سيما أن غرناطة هي آخر معقل للمسلمين في الأندلس؟ وهل تشكلت صورة من خلال شعره لعلاقة دولته مع الدول المجاورة؟ وهل صور شعره شيئا من مقاومته للنصارى الذين كانوا ينتهزون الفرصة للانقضاض على المسلمين، وإسقاط آخر حصن من حصونهم، ولذلك يحسن بنا أن ندرس الشعر السياسي في ضوء المرتكزات السياسية الثلاثة الآتية:

أ- سياسية يوسف الثالث الداخلية.

ب- علاقته بالممالك النصرانية.

ج- علاقته مع المملكة المغربية.

1- سياسته الداخلية: شعر يوسف الثالث جوانب مهمة تكشف عن

سياسته الداخلية يمكن تلخيصها في العناصر الآتية:

2- تنقلاته وأسفاره: يبدو أن يوسف الثالث كان يقظا حازما بعد توليه

الحكم، إذ لم يركن إلى الدعة والراحة بل أكثر من تنقلاته في مملكته، وقد أخبرنا أنه نظم شعرا في قصر الحمة أول رجب من عام 816 هـ، ومن ذلك الشعر قصيدته التي مطلعها (37):

لاحظته كالظبي عند كناسه ❁ كسلان يعثر في فضول نعاسه

ونظم شعرا أيضا أثناء سفره إلى مدينة «المنكب»، أول شهر ربيع الأول

من عام 819 هـ، منه قصيدته التي مطلعها (38):

تألق وضاح الأسرة باسم ❁ بليل كأن الزهر فيه لهاذم

وكان آخر سفر له هو سفره الثاني إلى مدينة المنكب، حيث كان على موعد

مع الموت، في هذا البلد المجاور لشلوبانية التي قضى في سجنها زهرة شبابه،

(37) الديوان ص 153.

(38) الديوان ص 112.

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

فقد مرض فيها مرضاً أودى بحياته، وذلك في يوم الأربعاء، التاسع والعشرين لرمضان عام عشرين وثمانمائة، بعد أن كان أمر بالتأهب لإقامة ما جرت به العادة من رسم العيد بالطعام وغيره (39).

2- حزمه مع القادة الذين كان يوليهم رسم خطه، ومراقبته لأعمالهم وقد قدم ذات مرة في عام 816هـ أحد هؤلاء القادة خطة من الخطط، فلم يصلح، فعزله، فتشفع له بعض العلماء، فعفا عنه الملك، وأقال عثرته إرضاء لهؤلاء العلماء وفي هذا يقول (40):

يا قوم لولا حلم ربي لم يكن	●	في العفو مني يطمع الأقوام
لا سيما من فاه بالسفه الذي	●	يدني كلوم القلب وهو كلام
شخص يهيم بكل واد مثلما	●	لعبت لمجنون الحمى الأوهام
جاءت به أيام دهر قد قضى	●	أن تعدل الآراء والحكام
قد كنت أعذر في السفاهة أهلها	●	فاعجب لما تأتي به الأيام
ولأنتم يا رافعيها راية	●	للعلم نعم الحزب والأعلام
صرفت إلي قلوبكم بمودة	●	يرعى بها عهد لكم وذمام
نظرت إلي عيونكم في يقظة	●	تصل الدعاء إذا العيون تنام
ولكم أبين ما قصدت بيانه	●	وأقول حكمي شأنه الأحكام

إلى أن يقول:

فأقلت من عثراته من كان في ● مهواه قد زلت به الأقدام
وأقمت فرضاً للجميل وسنة ● فإذا الوجود تحية وسلام

3- اهتمامه بالعلماء والأدباء، فقد اشتهر ذكر عدد من رجال العلم والأدباء في عصره، وذلك مثل ابن عاصم، صاحب التحفة، وأبي يحيى بن عاصم تلميذ الشاطبي، وابن أبي حاكم المالقي، والإلبيري وصهره مفرج، وابن فركون وغيرهم، وقد كان يهتم بدعوة هؤلاء العلماء في المناسبات المختلفة كالعقيقة والإعذار والأعياد وغيرها، من ذلك ما جاء في ديوانه (41):

(39) ديوان ابن فركون محمد بن شريفة، المغرب، ص 44، 1987م.

(40) الديوان ص 115.

(41) الديوان ص 148.

«ووجهنا ارتجالا إلى مجلس علماء حضرتنا في وليمة شرعية اتخذنا صنيعها بالرياض من قصورنا، على ما اقتضته عنايتنا بمجلسهم وتحفيظنا بالمزيد من تأنسهم.

يومنا يوم صباح مشرق • فأجيبوا يا نجوم الأفق
يوسفيا قد أقام سنة • نظمت أشرافها في نسق
في رياض حسننها متحد • شائع في مغرب أو مشرق
وأنا يوسفها من دولة • أطلع الأنجم ملء الحدق
بين أبطال جهاد تمتطي • للوغى غر الجياد السبق
ووفود الملك قد حفوا به • درر العقد وتاج المفرق
بذلت يمني ما شاء الندى • وعلى الله جزاء المنصف
هذه يوم احتفال المنتدى • يا حماة الدين أسنى خلقي

4- النهضة العمرانية في عهده:

كان ليوسف الثالث ذوق حضاري رفيع تجلّى به بنائه لحصن «المسلكين» وترميم قلعته، كما لاحظنا تنقلاته بين الحمة والمنكب وغيرهما، وحظي قصر الحمراء بعناية متميزة في عصره، وقد اقترح القصيدة الآتية لتكتب في إحدى قباب الحمراء يقول فيها (42):

يا دار شكرا للخليفة يوسف • فهو الذي والى الجميل وأنعم
وحباك من "روض العريف" بنسمة • تروي الجوانح من تباريح الظما
والقبة الغراء أصدق حجة • حيث البيان أبان عنها مفهما

ونظم قصيدة أخرى أمر أن ترسم في مبنى من مباني الحمراء (43)

أنا للظمآن ري • ولي القدر العلي
قد أقام حسن شكلي • المقام اليوسفي
كلما شغ غمام • أنا بالورد حري

(42) الديوان ص 114.

(43) الديوان ص 163 - 165.

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

وتبدو بعض هوايات هذا الملك الفنان في نظمه شعرا يكتب على بعض الأشياء كالقوس والسيف وغيرهما، يقول (44): «ومن نظمنا مما يكتب في غمد سيف أمرنا أن يكون في غاية الاحتفال.

تقلدني نحو العدى ناصر الهدى • وقد شخصت أبصارهم خوف حينها
جعلت غطاءء فوقه لأصونه • كما صانت الأجفان إنسان عينها
وكذلك قوله (45):

يوسف قلدني • ربه أيـدني
فأنا في كفه • حتف من عاندني

علاقته مع الممالك النصرانية:

تولى يوسف الثالث عرش غرناطة في أعقاب هدنة عقدها أخوه محمد مع فرناندو عم ملك قشتالة (خوان الثاني) والوصي عليه والذي سيصبح ملكا، وكان يدعي بالإفنت (infante) وكان الناس يعتقدون أملا كبيرا على ملكهم يوسف الثالث، كي يسترجع الحصون التي استولى عليها النصارى قبل الهدنة، كحصن الصخرة في ناحية رندة، ووجد هذا الأمل هوى في نفس يوسف الثالث الذي أبدى حسرة على ما آلت إليه أحوال الثغور من إهمال، وما أصبح عليه الناس من انحلال يقول (46):

لهف نفسي على الثغور تخلت • فهي حفر من الكماة الحماة
وأناس على المعاصي جهارا • قد أباحوا حريمنا للعداة
لست للصيـد من خلأئـق نصر • يوم أهنا بسلم تلك العتاة
ويعلن للناس عزمه على الجهاد حتى وإن قبل بالهدنة التي عرضها
الناصري عليه، إذ ربما يوافق عليها لغرض في نفسه كأن يكون خدعة حربية،
يقول (47):

(44) الديوان ص 130.

(45) الديوان ص 130.

(46) الديوان ص 5.

(47) الديوان ص 122.

أشرت بما فيه لقلبي سلوة • وفي ناصح مثلي يحق لك النصوح
 وإن "إفنت الروم" ينقاد خاضعا • كما انقاد من بعد الإباء جموح
 سيرضى بحكم السيف منه مسوف • ويسمح بالمال العريض شحيح
 وذلك سهل في مشيئة قادر • ينيل مراما مرتجى ويتيح
 أما نحن -والله العليم بقصدنا- • نهجر في نصر الهدى ونـريح
 بأفئدة لا يستقر قرارها • وهل بمثار النقع تهدأ ريح
 وهل لي إلى غير الحروب تطلع • وهل لي إلى غير الجهاد وطموح

وقد وفى ما وعد به، بخوض معركة حرر فيها جيشه حصن الصخرة في ناحية رندة، وبذلك انتهت الهدنة، يقول في هذا الحدث العظيم (48):

وإن "إفنت الروم" يجهد كلما • أراه المقام اليوسفي جهاده
 وكان ولي الشرك وافى مطاوعا • هوى ساقه نحو الهوان وقاده
 ففاز بها طوعا وحل بأفققها • وألقى لديها ذخره وعتاده
 وسار إلى أوطانه وهو ظافر • لها لا إلى الأخرى يرجى معاده
 يقود لها جيش الضلالة قاصدا • فحلأه المقدار عنها وذاده
 إلي أن أتى مولى الخلائق يوسف • فجد وأبدى عزمه وأعاد

وما كان من النصارى إلا أن حاصروا بقيادة (الإفنت) فرناندو ثغر (انتقيره) وذلك عام 1410 م (49)، حتى سقط في أيديهم، ونظم يوسف الثالث على أثر ذلك شعرا كشف فيه عن فئة من المنافقين الذين لم يحسنوا الدفاع عن ذلك الثغر الإسلامي يقول (50):

ويا عجبا من تارك حق ربه • تعرفت البغضاء من كنه حبه
 فلم ينتشق روح الرضى من مهبه • ومهما دعا داعي الهدى لم يلبه
 فأنى له بالفجر والفوز بالأجر

(48) الديوان ص 122.

(49) نيل الابتهاج، ص 285.

(50) الديوان ص 71.

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

وهل يرتضي أن الكفور مؤيد ● سوى ملحد، فضل الهداية يحجد
ملائكة السبع السموات تشهد ● على جامع في غيه يتردد
ويرتاح والإسلام في قبضة الكفر

ويذكر في ديوانه أيضا شعر يشير إلى مجابهة مع القشتالين في حصن
(مشاقر)، وانتصاره عليهم، يقول (51):

ما بين زرقة لحظه وحسامه ● يلتاح بدر الأفق عند تمامه
لما وثقنا بالنبي المجتبي ● في نقضه النبوي أو إبرامه
لم ينتظم للكفر عد جنوده ● إلا أقر العين نثر نظامه
هذا وكم من ضارح متوسل ● بجهاده وصلاته وصيامه
يدعو بنا للحرب من شهادته ● ولما أصاب الثغر من اهتامه
والله جل جلاله متكفل ● بالنصر والمعهود من إنعامه

وبعد ذلك انشغل يوسف الثالث بالصراع مع المغاربة على حدوده من الجهة
الثانية، مما جعله يعقد هدنة بينه وبين النصاري.

علاقات يوسف الثالث بالمملكة المغربية:

ب وفاة أبي سالم المريني، وعودة الغني بالله من منفاه في المغرب إلى
الأندلس، بدأ فصل جديد في العلاقات الأندلسية المغربية، فقد تنكر هذا الملك
النصري لبني مرين، واستغل ظروف عدم الاستقرار واستولى على حصن جبل
طارق الذي كان مركز اهتمام بني مرين، وقد تابع يوسف الثالث نهج جده
الغني بالله في سياسته مع المغرب، وفي علاقته مع حاكمها «أبي عثمان سعيد
بن أحمد بن أبي سالم المريني» فكان يطمع في أن يكون له نفوذ في المغرب،
ولكنه وجد حاكمها صلبا وفي سنة 813 هـ ثار أهل جبل طارق وأعلنوا تبعيتهم
للمغرب، وفي السنة نفسها جهز يوسف الثالث السعيد المريني ووجهه في
أسطول إلى المغرب ليطالب بالملك في محاولة لإسقاط «أبي سعيد عثمان» وقد
توالت محاولات يوسف الثالث استرداد جبل طارق إلى حكمه وببدو هذا الأمر
واضحا في شعره الذي يذكر فيه فخره باسترجاع جبل طارق، يقول (52):

(51) الديوان ص 125 - 126.

(52) الديوان ص 146.

105

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

هي بشرى دعت جميع العباد ❁ للتمادي على صريح الوداد
وأنهاها مضمنا بيت المتنبي " حسم الصلح ما اشتهته الأعادي":
واستعدنا حمد الإله وقلنا ❁ حسم الصلح ما اشتهته الأعادي
ويعود فيمدح بني مرين ويمدح أبا سعيد عثمان، وهذا يدل على حنكة
القائد السياسي المحنك، يقول (59):
هكذا الفخر يا أعز قبيل ❁ محرز للسباق خصل الجياد
جد سلطانكم أفاد العوالي ❁ فظفـرتم بذخره المستفاد
إذ نحى أبا سعيد بأزكى ❁ ما تحيا به صدور النوادي
ثم أخذ يشير إلى أن هذا الصلح يسهم في الالتفات إلى العدو المشترك،
يقول:

حجة السلم أكسبته عتوا ❁ وبلايا محيطة بالبلاد
ونحسب أنه وإن انتهى الصراع بين دولتين مسلمتين إلى مصالحة، فإن
فترة العداء ستبقى شاهدا على أن الصراع بينهما كان لصالح العدو المشترك
، وهذا ما حصل فعلا، فقد خسرت المغرب «سبته»، وخسرت الأندلس ضياع
حصون (انتقيرة) و(منتشاقرة) وحصن (الصخرة) وغيرها.

الفخر:

لعل من أبرز السمات في ديوان يوسف الثالث سمة الفخر بل هي سمة
عامة واضحة في معظم القصائد، فهي تشكل المعادل الموضوعي للمدح؛ أما عن
عناصر فخره الذي يوجهه للغيز، فيمكن أن نلخصها فيما يأتي:
1- فخره بأصله ونسبه وذلك نحو قوله في مقطوعة أمر بكتابتها على قبة
من قباب قصر الحمراء اليسرى (60):

يا يوسفى المنتمي ❁ يا سبط أنصار الرسول
فهو ينتمي إلى رباط الأنصار، إذ أن أسرته من سلالة سعد بن عباد،

(59) الديوان ص 40.

(60) الديوان ص 104. وانظر، عصر الدول والإمارات (الأندلس) شوقي ضيف، القاهرة،

دار المعارف، ص 219-220.

ويقول مفاخرا بأصله في قصيدة أخرى (61):

ألست سليل الصيد من آل حمير • وخير ملوك الأرض قوما ولا فخر
لنا المنصب الأعلى على كل منصب • لنا العزة القعساء والفرر الغر
لنا الهضبة الشماء سامية الذرى • لنا الراية الحمراء يهفوها النصر
مكارم أعيت كل من رام حصرها • وهيهات ما للشهب في أفقها حصر
فهو يفتخر بأنه سليل أصحاب الحول والطول من حمير، إذ أصل الأنصار
من اليمن، وأن لهم المنصب أو المقام الرفيع، والعزة، والوطيدة، والأعمال
العظيمة المشهورة، والهضبة الضاربة في السماء التي لا يمكن لأحد بلوغ ذراها
السامقة، والراية الحمراء، رمز إمارتهم وانتصاراتهم الماحقة، وهي مكارم يعز
حصرها، وهل يمكن أن تحصر أو تحصى الشهب والنجوم في السماء؟! ويقول في
قصيدة أخرى (62):

أنا الناصر السامي إلى كل مرتقى • بي الخطب يصحو جوه المتغيم
ولي في المعالي همة يوسفية • تسامى بها فوق الكواكب معلم
ويقول في قصيدة أخرى (63):

وإني اليوسفي أبأوجدا • ملوك لا يضام لهم جوار
وقد أمر أن يكتب على «سيف» البيتين التاليين (64):
أنا سيف للذي • فاق في المجد البشر
يوسف بن يوسف • وكفى لي مفتخر

2- فخره بمجموعة من الصفات المعنوية:

وافتخر يوسف الثالث بمجموعة من الصفات التي تعطينا صورة ناصعة
له كالعزم والشجاعة، فهو فارس قوي لا يهاب صروف الدهر، يقول (65):
أنا الذي تعرف الأيام عزمته • إن هم لم يخش تفريطا ولا فرطا

(61) الديوان ص 62.

(62) الديوان ص 121.

(63) الديوان ص 73.

(64) الديوان ص 73.

(65) الديوان ص 182.

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

مصمما كشهاب الرجم متقدا ● طاوي الحشى مضمر الجنين منخرطا
جربت دهري في حل ومرتحل ● فلم يرعني بصرف منه حين سسطا
وهو صاحب همة عالية لا تدانيها همة يقول (66):

أنا الناصر السامي إلى كل مرتقى ● بي الخطب يصحو جوه المتغيم
ولي في المعالي همة يوسفية ● تسامى بها فوق الكواكب معلم
وهو إنسان صادق وفي، يستجار إلى ظله في حر الهاجرة، يقول (67):
أنا يوسف واليوسفي صفاته ● إذا عز نيل فالمواهب نيل
أنا يوسف والصدق يشهد أنني ● على الخلق ظلّ في الهجير ظليل
ويعلن يوسف الثالث أنه انتصر في ضحى أحد الأيام، على حَمَلَة الصليب
وهو يقتدي في جهاده لهم، بجهاد الرسول صلى الله علي وسلم للكفار، مصمما
على استئصال بيعهم أو كنائسهم، مستعينا بعون الله في نصره، وسحقهم سحقا
ذريعا، يقول (68):

راق الزمان وجاءنا ميقاته ● بالضحوة الغراء من أيامه
يأتم في حرب الصليب وحزبه ● بشفيع كل موحد وإمامه
مستأصل بيع العداة مهتم ● ما صان فيها الكفر من أصنامه
والله جل جلاله متكفل ● بالنصر والمعهود من إنعامه

ويقول داعيا لدولته بالدوام، لأنها دولة مسلمة تنصر دينه (69):

وما الملك إلا ملك دولتي التي ● من الله أرجو أن يطول دوامها
صرفت إليه العزم أنصر دينه ● ولي نية فالصالحات اعتصامها
وربي كفيل بالذي أنا أمل ● وما بدأة إلا عليه تمامها
سينجز لي الوعد الجميل على العدا ● أوامر ملك قد تسنى مرامها

(66)الديوان ص 121.

(67)الديوان ص 105.

(68)الديوان ص 125.

الغزل والنسيب:

تختلط مشاعر الغزل عند يوسف الثالث بمشاعر اللوعة والألم وصدود المحبوب، فهو في بعض قصائده لا يخرج عن عناصر قصيدة الغزل المألوفة، وذلك من حيث ذكر امرأة بعينها صرح باسمها مرات معدودة وهي سلمى ابنة عمه، فيذكر بعضاً من صفاتها الحسية وذلك نحو (70):

لما وفلت سلمى بحفظ عهودي ❁ يمتت روض تهائمي ونجودي
هو ربع سلمى أسلمت قلبي له ❁ نظرات ألحاظ الظباء الغيد
وإذا هي ابتسمت يروك مبسم ❁ يزري بعقد اللؤلؤ المنضود
وفي أغلب الأحيان يتخذ شعره في المرأة بعداً آخر، إذ يتحول إلى نسيب رقيق يعكس نفسية تعاني معاناة كبيرة من الاشتياق، وهذا ليس غريباً عن شاعر مثل يوسف الثالث، إذ أن مرارة العشق ومكابداته تعترض الشعراء والفنانين العاديين، فكيف عندما يكون العاشق ملك في قومه؟ فهو بذلك في تجربته يقف أمام رقيبين.

أولهما: الرقيب الأخلاقي الذي دعاه لأن يتعفف في شعره.
وثانيهما: الرقيب الخارجي من مجتمعه وشعبه الذي ربما كان سبباً في أن ينحو بغزله منحى التجنب والصدود رغم اللوعة.
وكثيراً ما كان يقدم أشعاره في النسيب بقوله، ومما نظمناه على غير حقيقة (71) مثل قوله (72):

يا من يقاطعني بفرط صدوقيه وأقول لا شلت يمين القاطع
غرس جفوني فوق حدك روضة فظلللت أسقيها بفيض مدامعي
لولا العذار وما حوت قسماته ما راقني إشراق بدر طالع
وأحياناً كان يهرب في لقائه المباشر إلى عالم الطيف يقول (73):

(70) الديوان ص 36، وانظر القصائد الغزلية في الصفحات

190.155.144.157.156.153.152.

(71) انظر الديوان ص 135.97.

(72) الديوان ص 140.

(73) الديوان ص 140.

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

أين المنام وطيفه لي هاجر ● كم بت أرقبه بطرف خاضع
ويقول في استجداء عطف المحبوبة (74):

تقول سبيل الهجر سهل فما له ● ينوء بصدر دائم الخفقان
تنام جفوني عن سهاد جفونه ● وينعم بالي إذ يقول بلاني
ولم يدنهم مني خضوع وقربة ● فقلت كفاني من هواك كفاني
ولم يرع ودي أو معاني نسبتي ● ولكن تمادى هاجري وجفاني
ويقول (75):

وأهمل دمعي كالعقيق مسلسلا ● وإلا كمثل العقد وهو نضيد
فيا راحة القلب المعنى بحبه ● أسرك أني بالغرام شهيد
عسى الله بالحمراء يجمع شملنا ● ليبذل فيها مطرف وتليد
وهذا قريب من أشعار جميل بثينة شكلا ومضمونا.

الموشحات:

من المعروف أن الموشحات فن أندلسي نشأ في أواخر القرن الثالث الهجري ويعد مظهرًا من مظاهر التجديد في الشعر العربي، وقد جاءت استجابة لحاجة فنية تتعلق بولوع الأندلسيين بالموسيقى وكلفهم بالغناء، وحاجة اجتماعية تتلخص في امتزاج المجتمع الأندلسي بعناصر اجتماعية مختلفة.

بيد أننا لا نجد الموشحة فنا بارزا في ديوان يوسف الثالث، فموشحاته لا تتعدى أربع موشحات ثلاث منها في النسيب، مطلع الأولى (76):

بعيشكما دعا ذكر العشية ● وحثا في ربوعهم المطية
وإن لم تنزلا تلك الثنية ● قفا نفسا على نفس شجية
يعيد حياتها رجسح التحية

ومطلع الثاني (77):

(74) الديوان ص 128.

(75) الديوان ص 34.

(76) الديوان ص 162.

(77) الديوان ص 184.

يا من رمى قلبي عن سهم لحظ مصيب
صل مدنفا ذا مقلة تهمني دمعا سكيبا
من منصفى من شادن غر
مهفف كالغصن النضر
قدلج في بعدي وفي هجري
وواحدة في الرثاء مطلعها (78):

أما عجب أن غربت أنجم السما ❁ وكنا عهدناها تروق تبسما
فيا جيرة قد يمموا أجرع الحمى ❁ سلوا الأفق الشرقي مما تجهما
ولم قطرت أجفان مقلته دما
وهي لا تخرج في بنائها الفني عن ذلك الطراز الأندلسي الشائع، وهي
تتسم باستعمال كثير من المحسنات البديعية لا سيما الجناس بأنواعه، والطباق
وذلك كما يظهر في قوله (79):
ألا يا مكنسا بظباء أنس ❁ حويت من المحاسن كل جنس
ويا أفقا لبهجة كل شمس ❁ ويا مغني السرور وكل أنس

الدراسة الفنية:

التجربة الأدبية منبعها النفس.... وباعثها الانفعال الصادق فهي استقبال
واع للأحداث، وهي في أرقى تصور لها تتعامل مع أثر الأحداث ومداه، وتنأى
عن الرصد المباشر لها، وهي تجربة فنية لما يثور في أعماق النفس من أشواق
نحو إعادة تشكيل الواقع، واستشراف آفاق المستقبل، فكيف استطاع يوسف
الثالث إقامة عمارته الفنية في شعره؟؟

1- مطلع القصيدة: لعل أول الملاحظ على ديوان يوسف الثالث أن قصائده
لا تبدأ بمقدمات تقليدية، كالمقدمة الطللية مثلا أو الخمرية، وإنما هو يبدأ بث
مشاعره بأدوات ذوات صلة وثيقة بغرضه، وذلك نحو قوله في قصيدة، في رثاء
زوجه:

(78) الديوان ص 118.

(79) الديوان ص 162.

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

أحقا أن رحلت فلا إياب ❁ وأنا إن سألنا لا نجاب
ويبدأ قصيدة في الغزل:

لاحظته كالظبي عند كناسه ❁ كسلان يعثر في فضول نعاسه
ويبدأ بالنداء بقصيدة في النسب:

أيا غافلا عني ولست بغافل ❁ ويا قاطعا حبلي بوصل عواذلي
وقد اشتملت بعض القصائد على مقدمات وذلك نحو قصيدته التي قالها
في العتاب، ومطلعها:

لعل خيال العامرية يخطر ❁ بأجفان عان قد براه التستر
ولعل مرد هذه الظاهرة إلى سببين:

أ- إن عدم استهلال القصائد لمقدمات طليية مثلا يعد من مظاهر التجديد
التي تمثلها شعراء العصر العباسي، ولا شك أن ثقافة يوسف الثالث الشعرية،
ثقافة عالية، كانت تؤهله الاطلاع على تلك الأنماط من التجديد.

ب- يوسف الثالث شاعر مطبوع، ترك نفسه على سجيته في قول الشعر
فالشعر عنده فيض لما تجيش به نفسه في المواقف المختلفة من فخر وثناء وغزل
ونسب... إلخ، ثم إن مقام حاله كملك لا يلزمه بكثير من التهيؤ والأناة عند
التعبير، ولا أدل على ذلك من كثرة قوله: «وقد ارتجلنا» قبل أن يبدأ في كثير
من القصائد.

2- شعره بين القصائد والمقطوعات:

قصائد يوسف الثالث متفاوتة في الطول، أطولها وصل إلى ثمانين بيتا
وهي تلك التي عرضنا بعضها منها في عتاب أخيه والتي مطلعها (80):
لعل خيال العامرية يخطر ❁ بأجفان عان قد براه التستر
وأقصرها كان مقطوعات لا تتجاوز البيتين أو الثلاثة، من ذلك، كقوله
(81):

(80) الديوان ص 65.

(81) الديوان ص 123.

الطول منك قصير ❊ والمطل فيك كثير
يسير أمري كثير ❊ وليس منك يسير
جدعت أنف رجائي ❊ كأن قدرني قصير

ولعل مرد هذه الظاهرة إلى الأسباب التالية:

1- أنه شاعر حاضر البديهة، منتهى القريحة، يقول الشعر في كثير من
المواقف ارتجالاً، فهو يقول مقطوعة ويعلن أنه قالها على سبيل الفكاهة مثل قوله
(82):

إن صد عني في الهوى ظالماً ❊ دعوت بالرحمن على الظالم
دعا عليل القلب قد غره ❊ ميم أضافوها إلى قاسم
ويقول مخاطباً المشيب (83):

قلت للمشيب لا "يربك" جفائي ❊ في اختصاري لك البرور ومقتك
أنت بالعتب يا مشيبي أولى ❊ جئتني غفلة وفي غير وقتك
ويقول: «ومن المرتجل وقد أطل الشيب» (84):

حل المشيب بفؤدي فالبسني ❊ ثوبا من الوجد لا يغني على الأبد
قد كنت للزور مرتاحاً إذا طرقوا ❊ إلا المشيب ففت زوره كبدي
دعوه يمضي كما شاءت إرادته ❊ سأعمل الجهد في إرغامه بيدي
ويقول: "وقد ارتجلنا من باب المداعبة" (85):

لا يفرنك من طباعي سكون ❊ ومحيا يجول فيها العفاف
أنا كالصل إن لمست فلين ❊ وهو سم متى أهيج زعاف
وقال: بعد أداء صلاة الاستسقاء (86):

يا رحمة الله ويا عفوه ❊ شكى لك الإسلام من ضعفه
القحط قد حل بأرجائنا ❊ وحلمك المرجو في صرفه
فلا تؤاخذنا بأفعالنا ❊ يا من توكلنا على لطفه

(82) الديوان ص 81.

(83) الديوان ص 38.

(84) الديوان ص 38.

(85) الديوان ص 145.

(86) الديوان ص 145.

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

قد مسنا الضر ولا حيلة ❁ إلا لزوم الباب من خوفه
شفيعنا التوحيد يا من غدا ❁ المنح والإعطاء في كفه
2- أنه شاعر ملك، صاحب ذوق وصاحب موهبة، جعلته يتفنن في الشعر
فيوظفه في مناسبات مختلفة، فتارة يقول شعرا كي ينقش على القباب، وذلك
نحو (87):

ماذا أنص وما أقول ❁ والحسن قد بهر العقول
شرفا لمن يبغي العلا ❁ عزا على ركب الخيول
يا يوسفى المنتمي ❁ يا سبط أنصار الرسول
لا زلت مولى منعما ❁ شرف المعاهد والطلول

أو أن ينقش على السيف وذلك نحو (88):
يوسف قلدني ربه أيديني ❁ فأنا في كفه حتف من عاندني
وهذه الأغراض يناسبها مقطوعات شعرية تتسم بالبساطة في وزنها
وتركيبتها ولغتها.

التأثر الفني:

من الواضح في بناء قصيدة هذا الشاعر الملك تأثره بغيره من الشعراء، فهو
ذو موهبة شعرية صقلها محفوظ شعري متنوع، يمتد من العصر الجاهلي حتى
عصر الملك الشاعر، ويبدو لنا شعره نسيجا، تشتبك فيه خيوط مختلفة مشرقية
ومغربية، فهو ينسج كثيرا على طريقة غيره، ومن أبرز مما يلاحظ في شعره:
أ- المعارضة: عارض يوسف الثالث عددا من الشعراء، فقال: وأنشدنا على
طريقة النابغة (89):

خطرت فأزرت بالغصون الميّد ورنّت فأوردت الغصون الميّد
وضمن بيتها المشهور:

(87) الديوان ص 104.

(88) الديوان ص 130.

(89) الديوان ص 170 - 171.

بمخضب رخص كأن بنانه ❀❀ عنم يكاد من اللطافة يعقد
 وله دالية أخرى استوحى قافيتها من هذا البيت وضمنه (90):
 ما أبعد الشيء ترجوه فتحرمه ❀❀ قد كنت أحسب أن الصبر طوع يدي
 وفي ديوانه خمريّة ديريّة قال إنه نظمها « على وجه المجاز على طريقة أبي
 نواس ونستغفر الله » والتي مطلعها (91):
 أهلا بيوم الموسم المشهود ❀❀ إذ جدد القسيس فيه عهودي
 فض الختام عن الدنان مفتحا ❀❀ باب التنزه في الحسان الغيد
 وعارض قافية للمتنبّي مضمنا عجز مطلعها (92):
 عين مسهدة وقلب يخفق ❀❀ هذي تصوب وذاك دأبا يحرق
 كما عارض دالية له مضمنا في الختام صدر مطلعها:
 واستعدنا حمد الإله وقلنا ❀❀ " حسم الصلح ما اشتته الأعادي "
 ولا تقتصر معارضاته على الشعر المشرقي، فقد عارض أيضا رائية
 للرصافي البلنسي وموضوعها في الغزل، ومطلعها (93):
 وذي نخوة حاولت تقبيل خده وقد رحجت أعطافه بالهوى سكرا
 وعارض أبياتا للشاعرة حمدة الوادي أشية: وقال فيها (94):
 إلى الله أشكو ما بقلبي من الأسى ❀ وماقد طوت من شرح حالي أسراري
 تفرق أحباب وجمع حواسد ❀ وكثرة أعداء وقلّة أنصار
 ومما يلاحظ أن قصائده التي عارض فيها الشعراء، تتفق في معظمها في
 موضوعاتها، إضافة إلى قوافيها مع القصائد المعارضة، وهذا يتفق مع الرأي
 النقدي الذي يرى أن المعارضة ليست من باب التقليد وإنما هي صميمها تلاقي
 روحين وائتلاف قلبين أو اصطدام نفسيّتين (95):
 وقد أكثر يوسف الثالث من ترديد اسم الشريف الرضي في ديوانه فهو

(90) الديوان ص 39.

(91) الديوان ص 54.

(92) الديوان ص 150.

(93) الديوان ص 72.

(94) الديوان ص 62.

(95) الموازنة بين الشعراء، زكي مبارك، ص 392.

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

ينظم على طريقته في قصيدته التي مطلعها (96):

قل لمن عدد أملاك الزمن ❀❀ مجمل الوصف لنا في كل فن

وقال على طريقته قصيدته التي ذكر فيها (97)

لقد علمت نصر بأنني كفيلها ❀ إذا هاجت الهيجاء واحمرت الأرض

أدافع عنهم بالصوارم والقنا ❀ وأحمي حماها أن ينال لها عرض

وإني يوم الأمن أسدي مكارما ❀ تضيق بها الأقطار والطول والعرض

وقال على طريقة الشريف الرضي في الحجازيات (98):

يقولون هذا العيد قلت وبالحرى تعود ليال بالمصلى عهدناها

ليال هدت منا القلوب وضلت بنا الأحتلام حتى نشدناها

وليس غريبا أن تكون صورة الشريف الرضي وطريقته الفنية حية في

خيال يوسف الثالث، إذ أن نقاط الالتقاء بينهما كثيرة فكلاهما تجرع كأس

المرارة من يد الزمان حتى الثمالة، لا سيما أن والد الشريف الرضي قد نحي عن

الحكم وزج في السجن مدة لا تقل عن عشر سنوات، ومما زاد أسى الشريف

الرضي تلك القطيعة التي كانت بينه وبين أخيه، وقد خاطبه شعرا في قصيدته

الضادية المشهورة التي مطلعها (99):

رضيت من الأحباب دون الذي يرضي ❀❀ ودانيت من تقضي الديون ولا يقضي

والدارس للقصيدتين، قصيدة يوسف الثالث في عتاب أخيه وقصيدة

الشريف الرضي هذه يجد أن يوسف الثالث سار على نهج الشريف الرضي من

حيث المراوحة بين اللين كتذكير أخيه بصلة القرابة، إلى العنف وعدم استبعاد

القطيعة الأبدية بينهما.

(96) الديوان ص 131.

(97) الديوان ص 134.

(98) الديوان ص 158.

(99) ديوان الشريف الرضي، ج 1، ص 68 - 69.

وانظر: (i) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم، بيروت، دار

الاندلس، 1986 ص 115. (ب) الأدب العربي في العصر العباسي، ناظم رشيد، منشورات جامعة

الموصل، 1989 م ص 277.

التضمين:

ومن الملاحظ المهمة في ديوان يوسف الثالث التضمين من ذلك أنه ضمن قول زهير (100):

"وهل ينبت الخطى إلا وشيجه"

وضمن في قطعة له قول ابن وهبون (101)

"وأقول لا شلت يمين القاتل"

وضمن في مقطوعة أخرى قول عمرو بن معدي كرب (102)

"عذ يرك من خليلك من مراد"

وضمن في قصيدة قول العرجي (103)

"أضاعوني وأي فتى أضاعوا"

وضمن في قصيدة قول ابن دراج (104)

"وفي المهد مبغوم النداء كأنه"

وضمن في قصيدة قول حمدة الوادي أشية (105)

"وقلت حماتي عند ذاك وأنصاري"

ولا شك أن التضمين يؤدي إلى اكساب الشاعر قصيدته معنى ذا قاعدة عريضة في ذهن السامع، وقيمة استخدامه، لا تقل أهمية عن استخدام الرمز كتقنية من التقنيات المستعملة في الشعر الحديث، وذلك لأنه كفيل بإثارة مخزون القارئ في المعرفة إضافة إلى أنه يشير إلى قدرة شعرية خلاقة يستطيع الشاعر بواسطتها أن يعبر عما يجول في نفسه من خلال توظيف ركام المعلومات المختزن في نفسه.

(100)الديوان ص 93.

(101)الديوان ص 99.

(102)الديوان ص 110.

(103)الديوان ص 109.

(104)الديوان ص 16.

(105)الديوان ص 62.

مصادر الصورة:

إن المتأمل بعناصر الصورة في شعر يوسف الثالث يجد أنه يراوح بين الصورة التراثية، والصورة المنتزعة من بيئة الأندلس في شعره، في أغراضه الشعرية المختلفة، فهو يشبه أسنان المحبوبة بعقد اللؤلؤ، وذلك بقوله (106):

وإذا هي ابتسمت يروك مبسم ●● يزري بعقد اللؤلؤ المنضود
ويرى أن اختفاء زوجه وقد ووريت القبر كأنه أسرع من سير الخيل
العرب، يقول:

ولكن سارت الأظعان سي ●● حثيثا دونه الخيل العرب
وشبه ولده بالغصن اليانع الذي قصفه الموت:

كنت غصنا يروقني ●● فتثنى ثم انقصف
وشبه المحبوبة بالشمس كقوله:

فما راعني إلا دموع تبادرت ●● لشمس توارت حين راق بزوغها
وشبهها أيضا بالقمر، وشبه أنظارها بالشرك الذي وقع الشاعر في شبابه
يقول:

خليلي إن القلب يوم مصيرنا ●● لفي شرك الألحاظ كان وقوعه
وصدود المحبوبة كالسيف القاتل، يقول:

أصبحت مقتولا بسيف صدوده ●● وأقول لا شلت يمين القاتل
وصور المحبوبة في حالة صدودها للغزال:

إن تجودوا أنتم لذلك أهل ●● أو تصدوا فشيمة للغزال
ويصف بسالته وشجاعته في المعركة على الخيل العتاق الأصيلة التي طالما
خاضت غمار المعارك فأردت الكماة المحاربين ساجدين يقول:

يرد صدور النائبات بصدوره ●● ويقضي بما شاء الجلاذ ويحلم
نضته على البيضاء عزمة يوسف ●● فعادت ورود الصامتات بها دم
وقال:

فإن لنا الخيل العتاق إذا انبرت ●● تخال بأيدي الريح منها الشكائم
تخط بهامات الكماة محاربا ●● لها ساجد منهم وآخر قائم

ونلاحظ أن الصورة التراثية بوجه عام صورة جزئية محدودة، لا تشكل لوحة فنية متكاملة، وليس غريباً أن تأتي الصورة عنده هكذا، وذلك لأنه يصدر في صورته التراثية عن محاولة تمثل لشعر القدماء. ولا غرابة في أن يكون لطبيعة الأندلس الخلابة حضور واضح أيضاً في ديوان الشاعر فالطبيعة ينبوع الحدث الفني، يتفجر داخل ذات الفنان لا خارجها، وهو لا يوجد بقطرة من مائه إلا إذا استوعبته نفس الفنان، فالفنان يعب من معطيات الطبيعة وصورها كما يلقيها معكوسة في عدسة الذات الإنسانية، ذات الفنان التي تخصبها ما يلائمه من التعبير الجميل، حين ينبري لعمله الإبداعي. وقد أبدع يوسف الثالث في انتقائه ومن ذلك ما قاله في قصيدة غزلية، صور نفسه ينتظر فتاته في روضة غناء، ذات غصون منتشية، ونسيم عليل معطر بالوسن، تهدي الأنوف روائح الأحباب، ممازجا بين صفات هذه الروضة وصفات محبوبته يقول :

والغصن ريان المعاطف منتش • يومي (إلي) بزهرة ويحابي
والروض مبتسم الأسرة ضاحك • كزمان وصل بعد طول عتاب
تجكي بطائحه نمارق سندس • وتلاعه قد ألحقت بمسلاّب
مرت تصافحنا أنامل سوسن • ورنّت تفازلنا مع الإعجاب
والرياح تسحب ذيل كل خميلة • تهدي الأنوف روائح الأحباب
والآس صدع للحبيب معطفا • والخذ ورد مشرقا كشهاب

ويقول في قصيدة أخرى:

والطير تصدح والنسيم قد انبرى والنهر يصفق من غناء رباب
ولا يخفي تلوين الشاعر لصوره بعدد من المحسنات البديعية، كالجناس وذلك في نحو قوله (في الغزل):

إلا يا مكنسا بظباء أنس حويت من المحاسن كل جنس
والجناس والطباق في مثل قوله:

أيبعد شخصها والفكر يدني وتبرأ ساحتني والوجد يضني
ونلاحظ كذلك التقسيم الداخلي الذي أكسب شعره موسيقى داخلية وذلك

● شعر ملك غرناطة يوسف الثالث دراسة موضوعية وفنية

كما في قوله السابق وقوله (107):

يوسفيا ناصريا • طود عزم رسخا
تاركا حزب العدا • أجلا منتسحا
لملاقاة الردى • مربعا مدوخا
ولمن يبغي الندى • والوداد والأخا
ومظاهر الهدى • وموالة السخا

الموسيقى:

هنالك ملحظ مهم يتعلق بالموسيقى في ديوان يوسف الثالث، يتعلق بقدرته على نظم الشعر على بحور مختلفة، وذلك في الغرض الواحد ولأغراض المتعددة، ولم أجد أن هناك صلة مطردة بين استعمال بحر معين لغرض معين، فقد قال على البحر الطويل قصيدة في رثاء زوجه جاء فيها (108):

فأياسني أن ضلت العين قصدها على ثقة أن لا ترى النجم هاديا
وقال قصيدة في رثاء ولده على مجزوء الخفيف (فاعلاتن فاعلاتن) جاء فيه (109):

ضحكت سن الردى • عنه في يوم عبوس
وهذا يتفق مع الآراء النقدية التي ترى أن لا علاقة بين بحور الشعر وبين الأغراض الشعرية المختلفة.

أما فيما يتعلق بالقوافي، فنلاحظ أن الشاعر قد نظم عليها جميعا، وقد اختار ترتيب ديوانه ترتيبا يشير إلى قدرته على النظم على جميع القوافي حتى تلك القوافي الصعبة أو قليلة الشيوخ وذلك كقافية الضاد والطاء والهاء (110).

(107) الديوان ص 9.

(108) الديوان ص 165.

(109) انظر مثلا: الديوان ص 155.

(110) موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية، 1965؛ ص 248.

وانظر: العروض الواضح، مدوح حقي، دار البقعة، بيروت، ص: 112.

إلا أن القافية الأكثر شيوعاً في ديوانه هي قافية الراء، واللام ثم الميم والنون وهذا أيضاً يتفق مع الدراسات النقدية التي أثبتت أن هذه القوافي تشكل حضوراً أو شيوعاً واضحاً في الشعر العربي بوجه عام. |

